

# افكار حوكم الصحافة والثقافة

محمد البخاري

ان نهضة العرب الحديثة التي بدأت في مطلع هذا القرن ، وان كانت تتماثل مع نهضات الشعوب في امور كثيرة ، الا انها ككل نهضة شعبية اصيلة لها طريقها وصفاتها الخاصة ، وقد تجلت تلك الصفات الخاصة للنهضة العربية بتلاحم النضالين الوطني والقومي ، ومعارك التحرر السياسي والاجتماعي ، لتكون بذلك ثورة عربية تحررية وحدوية اشتراكية.

وحزب البعث العربي الاشتراكي ، من خلال الدور التاريخي الكبير الذي لعبه في حركة النضال العربي ، على المستوى القطري وعلى امتداد الوطن العربي ومن واقع تحمله مسؤولية قيادة الدولة والمجتمع منذ ثورة الثامن من اذار عام ١٩٦٣ ، وحتى اليوم ، وما حققه من انجازات في مختلف المجالات السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، اثبت انه المؤهل لآخذ موقع القيادة في الجبهة الوطنية التقدمية في القطر العربي السوري . وان يكون الدعامة الاساسية في بنائها . وان يكون منهاجه ومقررات مؤتمراته موجها اساسيا في رسم سياستها العامة وتنفيذ خططها (١) . كخطوة استراتيجية تبغي في نهاية المطاف توحيد فصائل القوى القومية التقدمية في الجمهورية العربية السورية من خلال التفاعل والتعاون والحوار المستمر والوصول بالنتيجة الى صيغة التنظيم السياسي الموحد على مستوى القطر . وسط التناقض الرئيسي في مرحلتنا الحاضرة بالنسبة للامة العربية التي هي بين جماهير شعبنا المتطلعة نحو اقامة المجتمع العربي الاشتراكي الموحد بقيادة فصائلها التقدمية . وبين الاستعمار والصهيونية والرجعية بقيادة الامبريالية الامريكية ، حيث اصبحت حركة التحرر العربية جزءا اساسيا من حركات التحرر العالمية (٢) .

وفي خضم هذا النضال ضد الصهيونية والامبريالية ، تمرسورية الان بمرحلة هامة وصعبة من تاريخ تطورها . مرحلة التحول نحو البناء الاشتراكي للدولة والمجتمع . والتي من اهم سماتها اعادة البنية الفكرية في المجتمع من جديد وتحقيق الثورة الاشتراكية في ميدان الثقافة وانجاز التحول الكامل عن الفكر البرجوازي ، لتسلم الجماهير الشعبية ماحققته الانسانية من تراث فكري متميز . وخلق الاشباع الثقافي للجماهير العريضة .

ولعله في خبرة الدول التي سبقتنا في هذا الميدان ، ما يمكن الاستفادة منه في التطبيق العملي وفق الظروف التي تتلاءم والاضاع الاجتماعية في القطر .

فقد اعتمدت اول دولة اشتراكية في العالم لذلك الهدف ، رفع مستوى التربية والتعليم الشعبي من اجل ذلك . واوجدت كل الظروف الموضوعية لتطوير وتوسيع ثقافة الجماهير الكادحة من عمال وفلاحين ومثقفين ثوريين وصفار كسبة . الخ . وادخلت الجماهير في عملية السياسة والمعرفة وبالتالي اوجدت الجماهير الشعبية المثقفة والقادرة على استخدام العلوم الحية ، وتطويرها لصالحها ، كنتيجة مباشرة لنشر العلوم والفكر الاشتراكي وتنظيم المجتمع على اسس الفنى الفكري الجماهيري البعيد عن النظرات البرجوازية الصغيرة وما تحتويه من عادات وممارسات .

فمع اليوم الاول للثورة الاشتراكية في تلك الدول اصبحت من مهام الدولة وتحت اشراف وتوجيه الحزب القائد في الدولة والمجتمع، ومن خلال الاجهزة الحكومية والمنظمات الشعبية والمهنية التي يقودها . خدمة اهداف الجماهير الواسعة ثقافيا من خلال نشر المعارف الفنية والعلمية بين اوساط الجماهير .

ولتحقيق التطور المطلوب تم التوسع في التعليم حتى أصبح شعبيا في جميع مراحلها . واستخدمت وسائل الاعلام الجماهيرية من صحافة ومسرح ومكتبة وسينما واذاعة وتلفزيون . الخ ، لنشر المعارف العلمية والادبية والفنية والسياسية والتقنية والاقتصادية ، في اوساط اوسع الجماهير في المجتمع لان المعرفة هي الاساس لكل تطور لاحق في .

وفي القطر العربي السوري وجدت الاهداف التي حددها دستور حزب البعث العربي الاشتراكي حول قدسية حرية الكلام والاجتماع

والاعتقاد والفن ، طريقها الى التطبيق العملي مع الايام الاولى لثورة اذار، من خلال عمل الحزب ونضاله اليومي من اجل ايجاد ثقافة عامة للوطن العربي حرة تقدمية انسانية ، وتحمله اجهزة الدولة التي يقودها، مسؤولية صيانة حرية القول والنشر والاجتماع والاحتجاج . لان الاشتراكية ضرورة وهي النظام الامثل الذي يسمح للشعب الذي هو مصدر كل سلطة وقيادة ، بما يحقق مبدا تكافؤ الفرص في التعليم والحياة الاقتصادية ، كي يظهر المواطنون في جميع مجالات النشاط الانساني كفاءاتهم على وجهها الحقيقي وفي حدودها القصوى (٣) .

ومفاهيم مثل الثقافة - التعليم - الاعلام ، واحدة لا يمكن الفصل بينها . فالثقافة - غاية ، والتعليم - وسيلة ، والاعلام - هو الانجاز العصري الذي يحقق نشر وتعميم منجزات الحضارة الانسانية ، ماضيها بحاضرها ومستقبلها . اضافة الى انه ومن خلال وسائله المتطورة لا يخدم التعليم وعملية التواصل الثقافي وحسب ، بل ويعمق الصلة بين الناس من خلال الطرح الفكري والعلمي ذو الصبغة الجماهيرية . وهو واحد من اهم وسائل انجاز الثورة في الحقل الثقافي ، من خلال تجسيد الانسان الجديد القادر على متابعة الثورة الاشتراكية كحقيقة . والانتقال بنجاح من مرحلة التحول ، نحو الاشتراكية . لما توفره من امكانيات هائلة لتكوين هذا الانسان ثقافيا وسياسيا واقتصاديا وعلميا .

فالثقافة بحد ذاتها اسلوب متكامل لحياة المجتمع الذي يشكل الانسان اساسه ، من خلال نظم اتصال هؤلاء الناس الذين بمجموعهم يشكلون هذا المجتمع او ذلك . ومن ذلك فالثقافة قاصرة ان لم تستطع الانتقال ، وعديمة الجدوى ان لم تتمكن من التطور الدائم .

والتعليم واحد من الاساليب العديدة لتحقيق التكامل والتواصل المعرفي الثقافي ، وهو قاصر ان لم تتوفر مادته التعليمية والوسيلة العصرية الجيدة والاسلوب المتطور .

ووسائل الاعلام هي العنصر الحي بمادته الغنية التي تستطيع ان تحقق فرصة التعلم الذاتي والمستمر تطويرا للانسان ، وتحقيقا للاهداف الاساسية للتعليم في التنمية الشاملة للمجتمع الجديد ، الاشتراكي الذي يفترض ان يمنح لكل فرد الفراغ الكافي من اجل استيعاب كل ما هو ثمين فعلا مما انجزته الحضارة الانسانية .

فالتطور اساسا تعكسه التنمية الشاملة التي توفرها ظروف مجتمع صناعي زراعي متطور . وهذا المجتمع لا يمكن ان يكون دون الانسان المتمكن من الخبرات والمهارات المناسبة لهذا التطور ، في جميع ميادين المعرفة الانسانية والعلمية والتقنية والفنية والفكرية ، التي تمكن هذا المجتمع من النهوض دون نكسات .

وقد أدركت قيادة الثورة في القطر العربي السوري أهمية وسائل الاعلام الجماهيرية ، في بناء الانسان الجديد ، من خلال اهتمامها ومن الايام الاولى لنجاح الثورة كما سبق واشرت . ووفرت لهذه الوسائل الامكانيات الضرورية لتكون قادرة على نقل الخبرات والمعارف اللازمة في جميع الميادين ، وتوزيعها جماهريا ولتوفر بمجملها الثقافة اللازمة لاعداد الانسان المثقف تماما للدور الذي يفترض ان يقوم به التعليم في اعداد الانسان المتعلم المتخصص بوحدة من مجالات التنمية الشاملة المعدة لاداء وظيفة انتاجية معينة .

والصحافة من بين وسائل الاعلام الجماهيرية الاخرى ، تتميز بامكانية توثيق الخبرات التي توصلت اليها العبقورية الانسانية بشكل يسهل العودة اليها ودراستها في مختلف الظروف والاقوات . وتمهد لتحويل هذه المنجزات الى كتب ومواد تعليمية في مراحل اخرى تالية .

كما وتسهل الصحافة عملية الصلة الحية بين القراء بعضهم مع بعض وبين القارئ ورجال الفكر والعلم والادب والفن . . . الخ . وتحقق الصلة العلمية بين قيادة البلد والجماهير الواسعة ، واقعها ومستلزمات

حياتها اليومية تسهلا لعملية اتخاذ القرار اللازم . وتوفير امكانية طرح القضايا الهامة التي هي بحاجة للمناقشة الجماهيرية الواسعة قبل ان تصاغ على شكل قرارات ملزمة ، والدعوة لهذه القرارات بعد ان تصدر من خلال تدعيمها بالشرح اللازم والمتابعة الحياتية في التطبيق العملي .

وتبقى العقبة الكأداء في وجه تحقيق الصحافة الجماهيرية مشكلة تفشي الامية في المجتمع تاركة العبء امام وسائل الاعلام الجماهيرية الاخرى كالاذاعة والتلفزيون مثلا ، للقيام بها . سيما وان جهاز التلفزيون اصبح اليوم عضوا في كل اسرة تقريبا .

فقد قامت قيادة الثورة مع اللحظات الاولى لتوليها زمام السلطة بتأميم وسائل الاعلام الخاصة ، وحولت ملكيتها للشعب ممثلا بالدولة ( عدا بعض الحالات الخاصة ) . واصدرت القوانين التي تكفل فعاليات الطباعة والنشر والتأليف والترجمة . . . الخ ، كنواة لانشاء الصحافة الجديدة التي يتميز بها القطر اليوم . وحددت اهداف المؤسسات الصحفية في ان تعمل على احياء التراث العربي الادبي والفني والعلمي عن طريق تجديده واغنائه . وذلك باصدار الكتب والمجلات والصحف وسائر النشرات الدورية وغير الدورية وتوزيعها على اوسع نطاق ممكن ( ٤ ) .

وازدادت هذه الاهداف وضوحا بعد ان دعمت ووسعت المؤسسات الصحفية لاحقا اثر حرب تشرين المجيدة عام ١٩٧٣ ، والدروس الاعلامية المستخلصة منها لتصبح هذه الاهداف : نشر التوعية السياسية وتقديم الخدمات الثقافية عن طريق تشجيع الانتاج العلمي والادبي والفكري والفني واطلاع القارئ داخل القطر وخارجه على الحقائق بما يخدم اهداف الامة العربية وقضاياها والفكر القومي الاشتراكي ويدعم النضال العربي الوطني والقومي والتقدمي في مواجهة الامبريالية والصهيونية ( ٥ ) .

ولدراسة تأثير الصحافة على الثقافة الجماهيرية لا بد من تحديد المعنى المقصود من مصطلح الثقافة في هذه الدراسة :

فالثقافة : هي مجموع ما أنتجه الفكر الانساني عبر العصور . وما صنعه وتصنعه الانسانية من خلال سير عملية التاريخ الاجتماعي العملي . في وصف ما تحقق تاريخيا من مراحل تطور المجتمع الانساني . وبدقة اكثر كل ما تتضمنه التقنيات والخبرات الانتاجية وما صنعه اليد الانسانية اثناء سير عمليات الانتاج المادية . وكذلك الانتاج الفكري المبدع في ميادين العلوم والفنون والادب والفلسفة والتربية والاخلاق ... الخ (١) . والاشتراكية العلمية تحقق الفنى الاجتماعي عندما تلتقي المعرفة بثقافة الانتاج المادي والفكري للانسانية بالانتاج الابداعي للانسان كفرد في المجتمع .

وصحافة القطر اليوم تتمتع بموقع هام لنشر المعارف الثقافية من خلال النقل والترجمة والتحقيق . ملتزمة بالخط الفكري لحزب البعث العربي الاشتراكي وهو الحزب القائد في المجتمع والدولة ويقود الجبهة الوطنية التقدمية . ويعمل على توحيد طاقات جماهير الشعب في الجمهورية العربية السورية ووضعها في خدمة اهداف الامة العربية (٧) . وكفصيل طليعي لحركة التحرر العربي التي اختارت خطها الفكري .

وللصحافة كما سبق واثرت دور هام في عملية النهضة الثقافية من خلال دورها في توزيع الثقافة المنسجمة والخط الفكري المعبر عنه . ولتحديد هذا الدور بشكل فعال ومؤثر لا بد من قياس الاداء وراجع الصدى للوظيفة الاساسية التي تضطلع بها في رفد النهضة الثقافية جماهيريا . كل المؤسسات الصحفية من خلال تصديها العلمي الفعلي لبعث النهضة العلمية والمنهج العلمي في التفكير المنسجم وخلق الظروف والايوضاع الملائمة لمتابعة هذه النهضة وتطورها اللاحق معتمدة على الاهداف ونشاطات المؤسسات العلمية التي احدثت في القطر والتي كانت موجودة فيه . ومدى تطورهما وانسجام خططها والتنبيه الى استكمال

الناقص منها من اجل تحقيق الانسجام اللازم بين الواقع والتخطيط .  
وهنا تبرز ناحية هامة جدا يمكن ان تلعب الصحافة دورا رائدا فيها لو  
احسن التخطيط لها . الا وهي تناول موضوع اعداد الكوادر العلمية  
الوطنية التي هي الاساس في اية نهضة علمية . وليس فقط في اثاره  
الاهتمام الى هذه الناحية الهامة وحسب بل وفي خلق الظروف اللاحقة  
لهذه الكوادر للولوج في عملية التعلم الذاتي المستمر وتحقيق التكامل  
والتواصل الثقافي الفردي من خلال ما تناوله على صفحاتها من مواد  
علمية حديثة تكون رافدا للمعارف التي سبق وكونها التعليم لدى هذه  
الكوادر . اضافة لتوفيرها مادة البحث العلمي ( المرجع العلمي ) وتوزيعها  
لهذه المادة بما يخدم عملية التتابع والتكامل والنمو وفق متطلبات التنمية  
وحاجات القطر الاساسية .

وتستطيع التصدي لهذه المهمة اساسا الصحف والمجلات المتخصصة  
من خلال ما توفره من دعم للنهضة العلمية في القطر ، بما تناوله على  
صفحاتها من خبرات علمية مستكملة في متنها ظروف وحاجات نشوتها  
وتطورها وكيفية هذا التطور في الدول التي لها السبق في هذا المضمار  
الهام . وخاصة منها تلك الدول التي تتفق ظروفها الاجتماعية والظروف  
التي يمر بها القطر الان وتطلعاته المستقبلية . وهنا يبرز دور المؤسسة  
الصحفية التي تستطيع ان تخطط لذلك من خلال امامها بالواقع المحلي  
من كل جوانبه . وتنطلق من اجل ذلك الى التكليف ، دون انتظار المادة  
التي يعدها الصحفي او المتخصص اعتباطا وفق وجهات نظره فقط  
ولظروف احاطت به وحده . بل ان تعتمد في تخطيطها الدفع الفعلي  
لعملية التنمية الشاملة للقطر وان تختار لذلك المواضيع التي تدعم  
عملية التنمية وتدفع بها نحو التطور المتزامن مع التطور العام .  
والتوجه للمختصين المحليين لاعداد هذه المواضيع والمواد لتكون فعلا مادة  
علمية صالحة للثقافة المتخصصة والجمهورية في آن معا . مدعمة  
بالامثلة والبراهين العلمية ، وتشرح بصورة وافية خبرة تلك الدول التي  
تم النقل والترجمة عنها . واخضاعها بعد ذلك لخبرة المؤسسة الصحفية



الناشرة في القطر لتضيف اليها الخبرات التي توفرت في مؤسسات البحث العلمي المحلية والمسؤولة عن اعداد الكوادر العلمية الوطنية . ولتكون اضافة لتلك الخبرات التي توفرت في الحجم والتنوع . والتي هي اساسا يجب ان تشكل واحدا من مصادر المعرفة لطلبة البحث العلمي ان كان داخل القطر او للموفدين خارجه . وتمثل هذه الخبرة الصحفية التي يجب ان تخضع لها المادة قبل النشر في طريقه الاعداد للنشر والتعليق والشرح اللازمين .

وهنا لا بد من التأكيد على ناحية هامة من نواحي التطبيق العملي اليومي للصحافة . وهو الالتزام الدقيق بالخط الفكري للحزب القائد واستراتيجيته العامة وقيادته التنظيمية شأنها شأن المؤسسات العلمية القائمة على اعداد الكوادر العلمية الوطنية . وانطلاقا من هذا المبدأ فعلى الصحافة واجب توفير السبل للاسراع في انجاز النهضة الثقافية بالقطر والتي حددتها ادبيات الحزب ومقررات مؤتمراته . واداء دورها التربوي المنطلق من الفكر العلمي الاشتراكي بتوجه نحو كل الشرائح الاجتماعية لبلوغ الهدف الكبير وهو تحقيق ثورة ثقافية شاملة وحقيقية في المنهج والتطبيق لاوسع الجماهير ذات المصلحة في الثورة .

وهذا يفرض على الصحافة ان تمتلك موقفا علميا ولغة صحفية قادرة على مخاطبة اوسع الجماهير . وان تستوفي في هذه اللغة كل الخصائص الحضارية لتكون مدخلا علميا تلج من خلاله هذه الجماهير للحضارة الانسانية والمجتمع الجديد وتساهم في بنائه ومنعته . ولهذا لا بد اولا من فهم مشترك لاهداف المجتمع الاساسية يوحد الكادر الصحفي ليس نظريا وحسب بل وعمليا من خلال الممارسة التطبيقية . ليتمكن هذا الكادر الصحفي بالتالي من الاسهام بدوره في توحيد وتعزيز الفهم المشترك بين هذه الجماهير انطلاقا من التفاوت الواقعي للمستوى الثقافي بين افرادها ووجهات النظر المختلفة والعمل على التقريب بينها . وهذا يتطلب من الصحفي الناجح ان يوجه الى نفسه بضعة اسئلة قبل الشروع بالكتابة ، يحدد فيها اسلوب التعامل مع الجماهير المستهدفة

وبشكل ادق : لمن اكتب ؟ وعن ماذا اكتب ؟ وما هو الغرض التربوي المقصود من هذه المادة ؟ وما هو الحجم والاثر المتوقع لهذه المادة في دفع عملية التنمية الاجتماعية للمجتمع الذي يتم بناؤه من جديد وفق اسس موضوعية جديدة ؟ كل ذلك انطلاقا من موقف علمي ملتزم بالاشتراكية العلمية مسلحا بالحقيقة العلمية والاسلوب الشيق واللفة المفهومة لاوسع الجماهير في القطاع المستهدف من العمل الصحفي ليعبر بحق عن كونه مادة تثقيفية اولا ، ووثيقة تؤرخ الحاضر ثانيا ، ومادة تعليمية وتربوية ... الخ ثالثا .

فالخبر والمقالة والتحقيق والتعليق والدراسة والزاوية .. الخ من الفنون الصحفية تستطيع ان تسهم في دفع عملية النهضة الثقافية والتنمية عندما تكون موجهة بصورة صحيحة وفق خط علمي واضح ومحدد .

وهنا يفرض نفسه موضوع ذو اهمية بالغة الا وهو موضوع اعداد الكادر الصحفي اللازم . فمعهد الاعداد الاعلامي الذي احدث في القطر عام ١٩٦٩ ، لم يكن كافيا لتغطية احتياجات القطر من الكوادر الصحفية اللازمة ، اضافة لقصر مدة الدراسة فيه ( سنتان ) ولكنه بشكل عام كان خطوة متقدمة في هذا المجال ومساهمته تستحق كل تقدير . هذا الوضع ترك بعض الثغرات في الاعداد الفكري والمهني للكادر الصحفي القائم حاليا ، فهناك من لم يسبق له اي اعداد صحفي متخصص وهذه الشريحة تتفاوت درجات التحصيل العلمي فيها . اضافة لشريحة اخرى تعتمد على ما اكتسبته اياه الخبرة العملية في حقل العمل الصحفي . الى جانب خريجي المعاهد الصحفية في الدول الراسمالية وخريجي المعاهد الصحفية في الدول الاشتراكية وبعض الدول العربية التي سبقتنا في مضمار اعداد الكادر الصحفي . فتنوع كهذا يتيح للصحافة في القطر الاستفادة من الخبرات المتقدمة في العالم فيما لو خطط لذلك بشكل جيد ، ووضعت الاسس اللازمة لتحقيق تبادل

الخبرة الذاتية بين هذه الشرائح الى جانب الاعداد الفكري اللازم والمستمر للجميع وفق استراتيجية الحزب القائد في الحقل الاعلامي المرتبط اساسا بخطة التنمية الشاملة في القطر . سيما وان الاعلام في سورية قد شهد ثورة حقيقية مع منافع السبعينات اثر الحركة التصحيحية التي قادها رئيس الجمهورية الامين العام لحزب البعث العربي الاشتراكي رئيس الجبهة الوطنية التقدمية في القطر الرفيق حافظ الاسد تمثلت بتوسيع المؤسسات الصحفية ودعمها وتعميق دورها في المجتمع ، انطلاقا من فهم القيادة السياسية في القطر لدور الصحافة وتقديرا منها للعمل الصحفي كراند في ميدان توجيه الفكر وقيادة الراي العام ، وصناعة الاحداث ، وتربية الجماهير .

